الفصل الثالث عشر

الفصل الثالث عشر

فى الرؤية المستقبلية

منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، بدأت اليقظة الإسلامية دورة من الصعود، الذى أثـار ويثير العديد من ردود الأفعال، إن فى داخل عالم الإسلام، أو على النطـاق الـدولى – فـى مراكز الأبحاث والدراسات، ودوائر صنع القرار..

ولقد تراوحت ردود الأفعال هذه بين الترحيب والاستبشار. والحـذر.. والتخـوف.. والمواجهة والقهر.. وتفجير الصراعات الدموية، التى تخطت وحشيتها الكثير مـن سـوابق العنف فى التاريخ!..

وإذا كانت دوائر كثيرة قد اختلفت وتختف فى موقفها مـن هـذه اليقظـة الإسـلامية المعاصرة، فإن هذه الاختلافات قد اتخذت فى أحيان كثيرة إجابات مختلفة على أسئلة واحـدة طرحت نفسها على هذه الدوائر المعنية بهذا الصعود لظاهرة المد الإسلامى الجديد.

ولم تقف هذه الأسئلة عند يقظة المسلمين، وصعود تيارات الحركات الإسلامية.. وإنما امتد التساؤل، أيضا إلى الإسلام.ز وإلى أبعاده السياسية والتشريعية والحضارية علـى وجـه الخصوص..

* مدى امتلاكه للبديل الحضارى القادر على تحريك أمـة؟ والـصالح ليحـل محـل الأيديولوجيات الغربية، التى وفدت، عبر قرنين من أوربا إلى ديار الإسلام.. والتى عجـزت عن أن تحدث تقدما حقيقًا فى هذه الديار؟..

* وهل سيكون هذا "التيار الإسلامى" أحسن حظًا من الأيديولوجيات الغربية.. فتتجذر تطبيقاته فى الواقع الإسلامى؟.. أم أنه سيكون مثل تلك الأيديولوجيات: صفحة تطـوى، دون أن تحدث تقدما حقيقًا.

* وما هى الإيجابيات.. والسلبيات.. والتحديات التى تصاحب هذا الصعود الإسلامى الذى شغل ويشغل كل فرقاء العالم الذى نعيش فيه..؟؟

أسئلة خمسة.. وإجابات.. تقدم نموذجا لواحد من الاجتهادات فى هذا الميدان..

السؤال الأول:

هل يحافظ الإسلام حتى يومنا هذا على دعوته الشاملة؟

الإجابة:

إن الدعوة الشاملة للإسلام تعنى أنه دين ودنيا، دنيا وآخرة، ومنهاج شـ.امل لتـ.دبير ملكات الروح والجسد، وشئون الفرد والأمة والإنسانية، وسياسة الدولة والاجتمـ.اع، وتقـ.ديم منظومة للقيم تحكم سائر شئون الحياة.

وفيما يتعلق بالجانب العقدى والشعائر والروحى، لم يجادل أحد فى استمرارية حيويـ.ة الإنسان فى ميادينه، بأكثر مما هى فى الشرائع الدينية الأخرى. فحتـ.ى عنـ.دما تراجعـ.ت أو عزلت حاكمية الشريعة الإسلامية عن بعض ميادين الدولة والاجتماع والسياسة والاقتـ.صاد – وخاصة فى ظل الاستعمار الغربى لأغلب أوطان عالم الإسلام – فلقد ظل الجاذـ.ب العقـ.دى والشعائرى والقيمى قوى التأثير والجاذبية فى حياة المسلمين.. وجاذبية هذا الجانب الروحـ.ى تتزايد فى هذه السنوات، فنشهد انعطافاً جماهيريا للتدين، والحافظ علـ.ى الـ.شعائر العباديـ.ة، وتحرى معالم الحلال والحرام فى العقائد والعبادات.

أما الشق التشريعى والقانونى من الإسلام، وتدبيره لسياسة الدولة والمجتمع – والـ.ذى عزلت حاكميته عن كثير من الميادين الحياتية، لتحل محله القوانين الوضـ.عية ذات الفلـ.سفة الغربية فى التشريع والتقنين– فإن هذا العزل لم يلق قبولاً لدى جماهير المسلمين، الذى أحسوا أن فيه قطعا لإحدى رئتى الإسلام!.. ولذلك شملت حركة الإحياء الدينى الإسـ.لامي، الحديثـ.ة والمعاصرة الإسلام العقدى والشعائر، والإسلام والشرعية والسياسة والاجتمـ.اع والاقتـ.صاد جميعا.

وعلى حين ظن البعض أن الإسلام قد تخلى – بعد محاولات الاسـ.تعمار تحجميـ.ه، وحصره فى العقيدة والشعائر – عن شموليته وتكامل منهاجه، كانت شمولية حركـ.ة اليقظـ.ة والأحياء الدينى والمعاصرة تبديدا لهذا الظن.. فمحاولة علمنة عالم الإسلام ودولـ.ة وسياسـ.ة مجتمعاته لم تتجاوز القشرة التى أخذت تتحطم أمام سعى المد الإسلامى الحديث والمعاصـ.ر.. ويشهد على هذه الحقيقة – حقيقة شمولية الدعوة الإسلامية، واستعصاء الإسلام على العلمنـ.ة والاختزال فى العقيدة والتخلى عن الشرعية حتى علماء الغرب الذين دعوا أبعاد تكامل مقاصد الإحياء الإسلامى المعاصر. فعالم الاجتماعى الإنجليزى " إرنست جيلنـ.ر" Ernest gellner يكتب فى مجلة "شئون دولية" International Affairs – عدد يناير سنة ١٩٩٠م – عن هذه الحقيقة التى فاجأت الغرب فيقول: "إن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقـ.ول إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يفوض الإيمان الدينى – مقولة العلمنة – صـ.الحة علـ.ى العموم.. وهى تتباين فى التفاصيل والفروق الدقيقة من حالة إلى حالة، لكن التأثير الـ.سياسى والسيكولوجى للدين قد تناقص عمليا فى كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفـ.ة،

وعالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدا من هذا. فالإسلام مقاوم للعلمنة وسيطرته على المؤمنين به قوية، وهى أقوى الآن مما كانت قبل مائة سنة مضت. فهو لم يقبل قواعد المجتمع العلمانى، مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة ومؤلمة.. وكان – الإسلام – على قدر من الرسوخ فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله رافضا لأى تمييز بين ما لله وما لقيصر، بحيث لا يسمح أبدا لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين لديمقراطية علمانية..".

فحفظا الإسلام على شمولية دعوته، حتى يومنا هذا، حقيقة يشهد بها أهل العلم، حتى من غير المسلمين!.

****

السؤال الثانى:

هل يمكن لدولة عصرية اعتماد الإسلام نظام حكم؟

الإجابة:

إن الصيغة الوسطية الجامعة التى مثلت وتمثل المنهاج الإسلامى فى مختلف ميادين النظر والتطبيق، تجعل الإجابة بـ "نعم" على هذا السؤال.

فلو أن الوحى الإلهى قد جاء لشئون الدنيا ولتدابير الدولة ونظام الاجتماعى بالنظم المفصلة والقوانين واللوائح الجامعة المانعة، لتجاوز تطور الدنيا الدولة والاجتماعى هذه القوانين، ولفقد الإسلام صلاحية كنظام حكم للدولة العصرية..

لكن الإسلام قد جاء بتفصيل الاعتقاد والشعائر العبادية والقيم الخلقية.. وفى شئون الدنيا والدولة والاجتماع، فصل فى الثوابت وأجمل فى المتغيرات..

فهو قد حدد المبادئ والقواعد والمقاصد، وترك للاجتهاد الفقهى الإبداع المتطور فى النظم والآليات والمؤسسات والفقه المواكب لمستجدات الحياة. ولذلك، كانت الشريعة وضعا إلهيا ثابتاً، وكان الفقه اجتهاد إنسانيا وضعيا محكوما بالشرع الإلهى الثابت، المرن الذى أتاح ويتيح لأصول الشريعة أن تمد – بالاجتهاد الفقهى – الفروع الجديدة التى تظل المستجدات والمتغيرات، ودونما قطيعة مع الأصول والجذور والمنابع وفلسفة التشريع الإلهى ومبادئه وقواعده ومقاصد.. وبذلك تظل إسلامية النظم فى الدولة الإسلامية دائمة، مع فتح أبواب الاجتهاد لكل المستجدات والمتغيرات.

ولهذه الحقيقة، تميز "التجديد الإسلامى" – الذى هو سنة من سنن الاجتماعى الدينى الإسلامى، لا تبديل لها ولا تحويل وفق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يبعث الله لهذه

الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها" – رواه أبو داود – تميز ويتميز هـ.ذا " التجديد الإسلامى" عن كل من "الجمود والتقليد" – الـ.ذى يغلـ.ق أبـ.واب التطـ.ور ومواكبـ.ة المستجدات – وعن "حداثة القطيعة المعرفية مع الموروث" والتى تعزل الجديد الـ.دنيوى عـ.ن الثابت الدينى الموروث.

وإذا كانت "النظم" – كل النظم – بمعنى "الأطر" و"الآليات" و"المؤسسات" – هى إبداع بشرى – بينما الوحى الدينى والثابت الإلهى هو "المبادئ" و "القواعد" و"المقاصـ.د" و"أحكـ.ام الثوابت"، فإن التجديد فى النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة هو ميـ.دان مفتـ.وح الأبواب، بشرط أن يكون النظم المتطورة هى الأقدر على تحقيق أقصى الدرجات من المبادئ والقواعد والمقاصد التى جاء بها الوحى الدينى والشريعة السماوية.

فوقوف الإسلام، فى المتغيرات الدنيوية، عند "فلسفة التشريع" وتركه تفصيل التـ.شريع والتقنين للاجتهاد والتجديد، هو الذى ميز النموذج الإسلامى عن الشرائع السماوية التى سبقت رسالة محمد، صلى الله عليه وسلم.. ففى تلك الرسالات السابقة كان التطور عنـ.دما يتجـ.اوز الشريعة يأتى رسول الله جديد بشريعة جديدة.. أما فى الشريعة العالمية والخاتمة – الـ.شريعة الإسلامية – فإن التجديد والاجتهاد يقومان بمهمة مواكبة المستجدات، مع الحفاظ علـ.ى روح الإسلامية السارية فى النظم التى تواكب وتستجيب لكل جديد.

****

السؤال الثالث:

هل النظام الإسلامى للحكم مرحلة حتمية على الشعوب العربيـ.ة أن تمـ.ر بهـ.ا فـ.ى معرض تطورها؟

الإجابة

إن النظام الإسلامي، بالنسبة لشعوب أمتنا، ليس "مرحلة" من مراحل تطورها.. لم يكن كذلك فى الماضى، ولا يمكن أن يكون كذلك فى الحاضر أو المستقبل.. ذلك أن إسلامية النظام هى – فى كلمة موجزة – إسلامية المرجعية فى هذا النظام.. وإسلامية المرجعية فى النظـ.ام الإسلامى هى شرط لصحة واكتمال الإيمان الدينى بالله، سبحانه وتعالى. فالإسلام لا يكتمل إذا نحن تصورنا الله مجرد خالق للكون والإنسان.. وعزلنا شريعته عن أن تكون لهـ.ا حاكميـ.ة التدبير فى دنيانا ودولتنا، لأن الله، فى التصور الإسلامى: خالق، وراع ومدبر ﴿ **أَلا لَه الْخَلْقُ**

والأمر ﴾ [1] – ﴿ **قَالَ فَمن ربكُما يا موسى (٤٩) قَالَ ربنَا الَّذِى أَعطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَه ثُم هدى ﴾** [2]– وشرط الصحة والاكتمال للإيمان بالله واليوم الآخر أن تكون المرجعية والحاكمية فى شئون الدنيا – ومنها الدولة والاجتماع – للوحى الإلهى – البلاغ القرآنى – وللسنة النبوية – البيان النبوى للبلاغ القرآنى ﴿**يا أَيها الَّذين آمنُوا أَطيعوا اللَّه وأَطيعوا الرسولَ وأُولى الأَمرِ منْكُم فَإِن تَنَازعتُم فى شَيءٍ فَردوه إِلَى اللَّه والرسولِ إِن كُنتُم تُؤْمنُون بِاللَّه والْيومِ الآخرِ ذَلك خَير وأَحسن تَأْويلاً (٥٩) أَلَم تَر إِلَى الَّذين يزعمون أَنَّهم آمنُوا بِما أُنزِلَ إِلَيك وما أُنزِلَ مِن قَبلِك يرِيدون أَن يتَحاكَموا إِلَى الطَّاغُوتِ وقَد أُمِروا أَن يكْفُروا بِهِ ويرِيد الشَّيطَان أَن يضِلَّهم ضلالاً بعِيداً**﴾ [3].

فالنظام الإسلامى، بالنسبة لشعوب الأمة، وهو عودة إلى الأصل، يتحقق به اكتمال وكمال الإسلام، وليس مرحلة توجد ثم تتوارى من حياة شعوب أمتنا.. وبعودة هذا النظام تستأنف الأمة المسيرة الأصلية والطبيعية، وتنهى القطيعة الطارئة مع هذا النظام، تلك القطيعة التى أحدثها – أساسا.. الاستثمار الغربى وفلسفته الوضعية وقوانينه اللادينية..

إن هذه الأمة قد ولدت من بين دفتى القرآن الكريم، فمن "رحم " هذا القرآن ولدت العقدية والقيم والدولة والعلوم الشرعية.. ومن "رحم" هذا القرآن ولدت فلسفة العلوم الحضارية والمدنية، التى جاءت حقائقها وقوانينها من آيات الله فى الكون والآفاق.. فالأمة والدولة والحضارة والقيم، جميعها ثمرة – بنسب متفاوتة ودرجات مختلفة – للإسلام– ولقد عاشت الأمة، بشعوبها المتميزة، وأوطانها المتعددة، عبر الزمان والمكان، وتطورت فى ظل النظام الإسلامي.. ولذلك، فإن تطورها المستقبلى ممكن أيضا فى ظل النظام الإسلامى.

فهذا النظام الإسلامى – بالتجديد والاجتهاد – يفتح باب التطور أمام مراحل حياة هذه الشعوب.. وليس مجرد مرحلة من مراحل حياتها.

****

السؤال الرابع:

هل تأخذ ظاهرة اليقظة الدينية التى برزت فى السنوات العشر الماضية منحى إيجابيا؟

---

(1) سورة الأعراف: الآية ٥٤

(2) سورة طه: الآية ٥٠

(3) سورة النساء : الآيتان ٥٩ – ٦٠

الإجابة:

ظاهرة اليقظة الإسلامية الاجتماعية والإحياء الدينى، التى برزت واجتذبت جماهير واسعة- على نحو غير مسبوق – فى العقود الأخيرة، من الظلم ومن الخطأ النظر إليها – عند تقويم الإيجابيات والسلبيات فيها – ككتلة واحدة صماء..

فإذا مثلت هذه الظاهرة الإسلامية تيار إحيائيا، يتغيا العودة كاملة إلى كامل الإسلام، واتخاذ هذا الإسلام منهاجا شاملاً لكل مناحى الحياة – العقدية والعبادية والخلقية والسياسة والاجتماعية والاقتصادية والمعرفية.. إلخ- فإن فى هذه الظاهرة العديد من الفضائل والتيارات التى تتمايز فى إطارها..

* فهناك الجماهير العريضة، غير المؤطرة ولا المنظمة فى أحزاب أو حركات، والتى اندفعت وتندفع ملايينها إلى الالتزام بأحكام الإسلام، باحثة عن حدود الله فى شئون حياتها، وعن معالم الحلال والحرام فى هذه الحياة.. ومحيية سنن الإسلام وشعائره فى تفاصيل شئونها الحياتية..

* وهناك فصيل وتيار العمل الخيرى – غير السياسى – الذى أقام ويقيم، فى عالم الإسلام، وآلاف الجمعيات والمؤسسات الخيرية والإغاثية والتنموية والصحية والفكرية والثقافية والتعليمية والدعوية.. إلخ.. إلخ.. وهو تيار يقيم قطاعا من البنى التحتية التى تسهم فى تخفيف مشقات حياة الناس، بواسطة الحلال الإسلامى، مبرزا دور الإسلام فى البناء الاجتماعى والإنسانى.

* وهناك أهل الفكر والاجتهاد والتجديد، الذين نذروا أنفسهم لصناعة الفكر والثقافة انطلاقًا من المنظور الإسلامى، يبدعون ميادين الفكر الإسلامى، على تعدد وتنوع هذه الميادين، إصلاحا لمناهج هذا الفكر، وتجديدا لفلسفاته، وصياغة لمعالم وسمات وقسمات مشروع حضارى إسلامى، يكون دليل عمل لكل فصائل وتيارات الإحياء الإسلامى المعاصر..

* وهناك التيار الحركى المنظم والمؤطر فى أحزاب وجماعات وجمعيات ذات مقاصد سياسة.. وأغلب هذا التيار – على امتداد أوطان الأمة – يلتزم الوسطية الإسلامية والاعتدال الإسلامي.. فيدعو إلى برامجه ومقاصده بالكلمة الطيبة، والحكمة والموعظة الحسنة، ويحاور ويجادل الفرقاء غير الإسلاميين بالتى هى أحسن – بل ويصبر ويصابر على الكثير من ألوان القهر والتضييق والعقبات والحجر التى تصب عليه وتوضع فى طريقه ويعانى الابتلاء بها.. وهو يحتكم إلى جماهير الأمة عبر آليات الشورى والديمقراطية.

* وهناك – من أهل الحركة – شريحة محدودة العدد، اختار شبابها طريق الغ.ضب والرفض والعنف والاحتجاج..

إما "رد فعل نزق" لعنف النظم والحكومات التى حرمتهم من العمل القانونى الـ.سلمى والمشرع.. وإما لتأويلات فاسدة لبعض المأثورات الإسلامية – من أحاديـ.ث الفـ.تن وآخـ.ر الزمان.. ومن فتاوى عزلوها عن ملابسات صروها – وإما للأمرين معا.. وهذه الـ.شريحة، وإن قل عددها، إلا أن صوتها قد أصبح عاليا، طبيعة أصوات الغضب والاحتجـ.اج دائمـ.ا.. وبسبب من المخطط الإعلامى الخبث الذى يسلط على هذه الشريحة كل الأضواء، ليشوه كـ.ل وليلقى ظلال هذه الشريحة على كل الموكب العريض لظاهرة اليقظة الإسـ.لامية المعاصـ.رة.. وذلك بهدف حجب الإيجابيات الكبيرة والكثيرة لأعظم ظواهر عصرنا عن أنظار الجماهير!.

****

السؤال الخامس:

من العدو الأول للإسلام حاليا؟

الإجابة:

إن أوطان عالمنا المعاصر، هى بالنسبة للإسلام المعاصر، داران:

١– دار استجابة، استجابت، شعوبها لدعوة الإسلام وأصبحت تكون أوطان الأمـ.ة الإسلامية، بشعوبها وقبائلها وقومياتها المتميزة.

٢– ودار دعوة، لم تستجب شعوبها لدعوة الإسلام، فظلت على شـ.رائعها الدينيـ.ة السابقة، أو على وثنيتها أو إلحادها المادى، مع وجود أعداد – مئـ.ات أو آلاف أو ملايين – استجابوا للإسلام من بين أبناء هذه الشعوب.

ونظرة الإسلام إلى هذه الشعوب، التى لم تستجب بعد لدعوته ليست النظرة إلى العدو، فضلاً، عن أن يكون العدو الأول.. وإنما هى النظرة "لأمة – جماعة – الدعوة" التى يعـ.رض المسلمون عليها الإسلام، تاركين لها حرية الاختيار، وفقًا للقاعدة القرآنيـ.ة ﴿ **لا إِكْـ.راه فِـ.ى الدين** ﴾ (١)

أما العدو الأول للإسلام، فهو ذلك الذى يناصب الإسلام وأمته وعالمه العداء، جـ.اعلاً منه وعالمه العدو الأول، وموجها إلى المسلمين آليات أحلافه العسكرية ومؤامرات مؤسـ.ساته السياسية، وضغوط منظماته الاقتصادية، وانحلال ثقافاته وإعلامه.

---

(1) سورة البقرة : الآية ٢٥٦.